النسق الناسخ لما يُسمَّى بالقصائد المنصفة "دراسة وصفية تحليلية"

د. نورا علي يسلم صحران

استاذة الأدب العربي القديم المشارك، قسم اللغة العربية، كلية صبر للعلوم والتربية

جامعة لحج (الجمهورية اليمنية)

nooralisahrn@gmail.com

تاريخ تسلم البحث: ٢٠/ ١١/ ٢٠٢٣م **تاريخ قبول البحث**: ٣/ ١٢/ ٢٠٢٣م

Doi: 10.52840/1965-011-001-020

الملخص:

تهدف الدراسة إلى استجلاء مؤشرات النسق الناسخ لما أسموه بالقصائد المنصفة، وبيان أنّها قصائد فخر للذاتية القبلية؛ فقد لوحظ عند بعض الشعراء الجاهليين الحديث عن قوة العدو وشجاعته وبسالته، في شعرهم الحربي، جاء ذلك في أبيات أو قصائد معدودات، أسموها بالأشعار المنصفة، لأنَّ الشاعر تجاوز فيها النزعة العصبية للقبيلة، بإنصاف عدوه، بأنْ يسبغ عليه صورة ماجدة من صور البطولة، فيجعل القصيدة قسمة بينه وبين عدوه، بيت بيت، أو شطر بشطر، فينصرف جزء من القصيدة إلى الشاعر وقومه، وجزء إلى ذكر أعدائه، ولكن بالاستقراء والدرس والتحليل، يتبين أنَّ ما أسموه بالإنصاف ما هو إلا وسيلة غير مباشرة من وسائل الفخر بالذاتية القبلية، أو كما قال المرزوقي شارح ديوان الحماسة: إنَّ ثناء الشاعر على العدو وإكباره لمكانه راجع إليه، أي إلى الشاعر ذاته، فمتى ما كان العدو قويًّا شديد البأس كان الشاعر كذلك. تبين ذلك من خلال نسق مضمر في النص يحمل الفخر ناسخًا هذا الإنصاف الذي فحواه ثناء الشاعر على العدو. وقد توصلت الدراسة التي اتبعت المنهج التحليلي الوصفي إلى أمور منها:

١- القصائد المسماة بالمنصفة هي من شعر الحروب، يحكي فيها الشاعر عن طرفين متقاتلين، مصورًا ما حدث لهما من حر اللقاء مع بروز ميله لقومه.

٢- أنّها قصائد فخر وليست من التناصف في شيء، فمدح العدو والثناء عليه وسيلة غير مباشرة من وسائل الفخر.

الكلمات المفتاحية: النسق، الناسخ، القصائد، المنصفة، الإنصاف، الفخر.

The Cancelling Pattern of What is Called the Fair Poems (A Descriptive Analytical Study)

Dr. Noora Ali Yeslam Sahran

Associate Professor of Ancient Arabic Literature – Arabic Language Dept. - Saber College of Science and Education - University of Lahj (Yemen)

nooralisahran@gmail.com

Date of Receiving the Research: 20/11/2023 **Research Acceptance Date:** 3/12/2023

Doi: 10.52840/1965-011-001-020

Abstract:

This study aims to explain the indicators of the pattern of cancelling in what is called the "Fair Poems" and clarify that those poems are for tribal persona pride, as it was noticed in some of pre-Islamic poets the speech of the opponent strength, bravery and valor in war poetries. All of these come in some counted stanzas or poems that are called the "Fair Poems", because the poets avoided the inclination to his tribe by fairness to his enemy or opponent by complimenting his opponent as a hero. Thus, he makes his poems equally divided between him and his opponent, verse by verse or stanza by stanza, so that part of the poem is specified to the poet and his tribe and the other part is to mention his opponents. Nevertheless, by extrapolating, studying and analyzing, it is revealed that the "Fair Poems" are not but an indirect way of the ways of pride of tribal persona, or as Al-Marzouqi in explaining "Al-Hamasah" poem says: "in complimenting the poet to his opponent and elevating his rank is referred to the poet himself; so when the opponent is strong, so is the poet. This is revealed through an implied pattern in the text which has pride that is cancels the fairness that is contained in the poet complimenting his opponent.

This study, that adopted the descriptive and analytical approach, reached many points, among which are that:

1- The poems that are called "Fair Poems" are from war poetries, in which the poet talks about two warriors members describing what happened to them of heated confronting, with the projection of his inclining to his tribe.

2- They are pride poems and do not have equality or fairness at all, as complimenting or admiring the opponent is an indirect mean of pride techniques.

Key Words: pattern, cancelling, poems, fair, equality, pride.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله على نعمه وآلائه، والصلاة والسلام على خاتم رسله وأنبيائه وعلى آله أجمعين. أمَّا بعد:

فهذه دراسة عن المنصفات – وهي قصائد قيلت في حروب – سميت كذلك لأنَّ القصيدة جُعلت نصفين بين القائل وعدوه، إذ قسمَ الشاعر الشهادة قَسْمَ السواء، وفي أثناء تتبعي لكتب الأدب الجاهلي، قرأت في جلِّ مصادره أنَّ المنصفات تحفل بمشاعر إنسانية تجانب النزعة العصبية، ويخفت فيها صوت الفخر، فالشاعر دائمًا ما يتعاطف مع الخصم، فيصف شجاعته، ويُقرُّ بقوته، بل من الكتاب من يرى أنَّ العدو اللدود يظهر فيها بصورة الصديق الودود.

ولكن هذه الأشعار ما هي إلا شعر فخر بالقبلية الذاتية الطاغية على الآخر، ووصْف الشاعر عدوه بالقوة ليس من باب الإنصاف، بل من باب التفاخر؛ لأنَّ وصف الخصم بالقوة والصبر في الحروب، راجع للشاعر ذاته، فإذا هزم كان على يد خصم قوي الشكيمة ولا عار في ذلك، وإذا انتصر طار ذكره في المنتديات والمجالس والأسواق وصار بطل الأبطال؛ لأنَّه هزم بطلًا. وبالاستقراء والتفتيش والتحليل ستسعى الدراسة لإثبات ذلك، وستكون أشهر ثلاث قصائد مسماة بالقصائد المنصفة هي النموذج التطبيقي للدراسة، وهي: سينية العباس بن مرداس، و نونية عبدالشارق الجُهني، و قافية المُفضَّل النُّكري.

هدف الدراسة:

ترصّد القصائد الثلاث المسماة بالمنصفات، واستجلاء ملابساتها لبيان أنَّ الأبيات الموسومة بالإنصاف هي أبيات فخر وليست من التناصف في شيء.

أهمية الدراسة:

١- تمثل إضافة نوعية تثري المكتبة الأدبية العربية.

٢- قد تفيد في توجيه الدراسات إلى سبر أغوار الشعر العربي، ودراسته من جديد بسبل مختلفة، ومن جهات مغايرة.

الدراسات السابقة:

هناك دراسات عدة تناولت ظاهرة ما سُميَّ بالأشعار المنصفة، وبثَّ فيها أصحابها العلل والمسوغات التي تعزز آراءهم، من هذه الدراسات:

١- المنصفات من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، دراسة موضوعاتية فنية، مراد زعباط، أطروحة دكتوراه، جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، الجزائر، ١٤٤٢هـ، ٢٠٢٠م.

٢- المنصفات في الشعر الجاهلي، ثابت محمد صغير مقبل، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، ١٩٨٧م.

٣- المنصفات في شعر فرسان العصر الجاهلي، ربيع سعداوي، مذكرة لنيل شهادة الماستر، جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، ٢٠١٩م.

٤- القصائد المنصفة، أسامة علي أحمد أبو علامة، رسالة ماجستير، جامعة الخرطوم، السودان، ٢٠٠٣م.

وهي دراسات خاصة بالمنصفات أفادت منها الباحثة كونها احتوت كمًّا واسعًا من هذه الأشعار: قصائد ومقطوعات وأبيات، وجمعت كثيرًا من الآراء - قديمة وحديثة - قيلت فيها. غير أنَّ هذه الدراسات سارت عكس نظرة الباحثة لهذه الأشعار، فقد سعت تلك الدراسات إلى زج ما سُمِّي بالأشعار المنصفة في إطار المعنى اللغوي للفظة إنصاف، لأنَّ الشعراء عدلوا وأنصفوا أعداءهم بوصفهم بالأبطال الأشداء والثناء عليهم، وبأنَّهم أهل حرب، في حين اتجهت الباحثة في دراستها إلى إثبات أنَّ الشاعر إنّما أراد التفاخر والتعالي وليس الإنصاف الذي اتخذه الشاعر وسيلة لإظهار شجاعته التي فاقت شجاعة الخصم. ولكن هناك دراسات عامة تناولت المنصفات في بعض صفحاتها، وكان لها أهميتها في توجيه الباحثة إذ سعت في الاتجاه ذاته، مثل:

١- شعر الفرسان في العصر الجاهلي (الوظائف والدلالات)، رحيق صالح فنجان الصالح، رسالة ماجستير، جامعة ذي قار، العراق، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

٢- صورة الآخر (العدو) في شعر الفرسان في العصر الجاهلي، أحمد عبيد عبدالله، مجلة بحوث كلية الآداب، جامعة المنوفية، المجلد ٣٠، العدد ١١٦، ٢٠١٩م.

وتحصلت الباحثة بدراسة خاصة بالمنصفات تتفق مع هذه الدراسة الحالية في الوجهة والهدف، كان بالإمكان أنْ تفيد منها الباحثة، غير أنّها وقعت في يدها بعد اتمام الدراسة، فقلَّتْ الإفادة، وهي:

(القصائد المنصفات في الشعر الجاهلي في ميزان النقد البلاغي، قصيدة المفضل النُّكري نموذجًا)، وليد السيد مصطفى فرج، حولية كلية اللغة العربية بإيتاى البارود، جامعة الأزهر كلية اللغة العربية بإيتاى البارود، العدد ٣٢، المجلد ٤، ٢٠١٩م.

وهي دراسة كما قال صاحبها محاولة لقراءة واعية متعمقة، تتبع فيها الأساليب البلاغية والأنماط التعبيرية التي وظفها الشاعر في قصيدته لبيان دورها في إثبات الإنصاف للقصيدة أو نفيه عنها، و بناءً على التحليل البلاغي تمكن من إثبات أنَّ القصيدة حماسية فخرية ولا تنتمي إلى ما يُسمى بشعر الإنصاف، وقد أحسن وأفاد. ولكن مع اتفاق الدراستين في الهدف والوجهة، فإنَّ الدراسة الحالية التي بين أيديكم تختلف في أمور منها:

١- تمت فيها دراسة ثلاث قصائد لا قصيدة واحدة لنفي الإنصاف عنها.

٢- تتبعت فيها الباحثة معظم السياقات النقدية القديمة والحديثة التي درات حول مصطلح (الإنصاف)، في أثناء دراسة القصائد، ووقفت عندها تفسيرًا وتحليلًا؛ لبيان مدى توافق المصطلح مع أقوال النقاد أو عدم توافقه.

منهج الدراسة:

وقد اعتمدت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي لدراسة الظاهرة وأبعادها.

خطة الدراسة:

حوت الدراسة على:

١- المقدمة: وتضمنت ما سبق.

٢- التمهيد: مدخل للدراسة.

٣- مضمون الدراسة: استجلاء مؤشرات النسق الناسخ، وقد جاء في ثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول: ميل الشاعر إلى قومه في الأبيات المسماة بالإنصاف.

المبحث الثاني: أبيات الفخر.

المبحث الثالث: مدح الشاعر العدو.

٤- الخاتمة.

٥- فهرس المراجع والمصادر.

التمهيد:

تُعد معلقة عمرو بن كلثوم النموذج الأمثل للفخر في الشعر الجاهلي، فهي القصيدة الناسخة للآخر، كما يصفها الغذامي، ذلك أنّها تعلن الذاتية المطلقة وتلغي الأخر(١)، وهذه من أهم سمات قصائد الفخر والحماسة بخاصة قصائد الحروب، حتى غدا الشاعر بوصفه لسان حال القبيلة وخطيبها المفوَّه، وأحد فرسانها مقيدًا بهذه الذاتية الطاغية التي تلغي الآخر، إما مفتخرًا بذاته أو بقبيلته التي يرتبط بها ارتباطًا تكاد تنعدم فيها أناه الاجتماعية، حتى تحولت هذه الذاتية إلى سلوك ثقافي يزخر به الشعر العربي القديم، وكان أكثر من أظهر هذا السلوك الشعري هم الشعراء الفرسان.

وفي غمرات هذا الفخر بالذاتية المطلقة لوحظ عند بعض الشعراء من الجاهليين الحديث عن قوة العدو وشجاعته في شعرهم الحربي، والثناء عليه، جاء ذلك في أبيات أو قصائد معدودات أسموها بالأشعار المُنصِفة، وقد أشار إليها القدماء كالأصمعي(٢)، والجمحي(٣)، والجاحظ(٤)، وابن قتيبة(٥)، وغيرهم. وهي – كما أسلفنا – قصائد معدودات، وأبيات منثورة في بضع قصائد، وكان أشهر تلك القصائد، وأكثرها دورانًا على ألسنة الرواة وفي بطون الكتب ثلاث قصائد أوردها الخالديان في كتابهما (الأشباه والنظائر)، وأشارا قبل إنشادها كاملة إلى أنَّه :

(١) النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، د. عبدالله الغذَّامي، ط٣، ٢٠٠٥م، المركز الثقافي العربي، المغرب، ١٢١.

(٢) يُنظر: الأصمعيات، الأصمعي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون، ط٥، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩ و ٢٠٤.

(٣) يُنظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ١/ ١٤٥. ١/ ٢٧٥

(٤) يُنظر: البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط٧، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨م، مكتبة الخانجي، القاهرة،٤/ ٢٣.

(٥) يُنظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط٢، ١٩٨٢م، دار المعارف، القاهرة، ١ / ٣٧٧.

"ذكرتْ الرواة أنَّ مُنصِفات أشعار العرب ثلاثة أشعار"(٦): الأولى قافية المفضل النَّكري ومطلعها(٧): [من الوافر]

ألمْ تَرَ أنَّ جِيرَتَنا استَقلُّوا فنِيَّتُنا ونِيَّتُهُمْ فرِيقُ

والثانية نونية عبدالشارق الجُهني، ومطلعها(٨): [من الوافر]

ألا حُيِّيتِ عنَّا يا رُدَيْنا نُحَيِّها وإنْ كَرُمتْ عَلَيْنا

أما الثالثة فهي سينية العباس بن مرداس ، ومطلعها(٩): [من الطويل]

لأسماءَ رسْمٌ أصبَحَ اليومَ دارِسا وأقفرَ منها رَحرَحان فراكسا

وذُكِرَتْ غير هذه القصائد، مثل دالية خداش بن زهير(١٠) ومطلعها(١١): [من الوافر]

صبا قلبي وكلفني كَنُودا وعاود داءه منها التليدا

(٦) كتاب الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، الخالديان: أبوبكر محمد، وأبو عثمان سعيد، ابنا هاشم، تحقيق: السيد محمد يوسف، ١٩٥٨م، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١/ ١٤٩.

(٧) يُنظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها. و الأصمعيات، ١٩٩، و طبقات فحول الشعراء، ١/ ٢٧٥، والاشتقاق، ابن دريد، تحقيق: عبدالسلام هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، مصر، ٢ / ٣٣٠.

(٨) يُنظر: كتاب الأشباه والنظائر، ١ / ١٥٢، و شرح ديوان الحماسة، ١/ ٤٤٢.

(٩) يُنظر: كتاب الأشباه والنظائر، ١ / ١٥٣، والأصمعيات، ٢٠٤ ، و شرح ديوان الحماسة، ١/ ٤٤٠، و يُنظر: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبدالقادر البغدادي، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط٤، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٨ / ٣٢٦.

(١٠) يُنظر: طبقات فحول الشعراء، ١/ ١٤٥..

(١١) شعر خِداش بن زهير العامري، تحقيق: يحيى الجبوري، ١٤٠٦ه - ١٩٨٦م، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ٣٩.

وحائية عمرو بن قميئة ومطلعها(١٢): [من الطويل]

أرى جارتِي خفَّتْ وخفَّ نصِيحُها وحبَّ بها لـولا النـوى وطمُوحُهـا

وذكرت لامية عمرو بن براقة على أنّها إحدى المُنصِفات، ومطلعها(١٣): [من الوافر]

عَرفـتَ مِـن الكُنـودِ بـبطنِ ضِـيمٍ فَجَـوٍّ بَشـائِمٍ طلَـلًا مُحِـيلَا

وورد في الخزانة "أنّ أوّل من أنصف في شعره مهلهل بن ربيعة"(١٤)، في قوله:

كأنّـا غُـدوةً وبَنـي أبِينَـا بجنْـبِ عُنَيْـزةَ رَحَيـا مُـدِيرِ

وفي أثناء تتبعنا لما قاله القدماء عن المنصفات، وجدناه لم يتجاوز قولهم: (وهي التي تُسمى المنصفة)(١٥)، أو (قصيدته التي يقال لها المنصفة)(١٦)، أو (صاحب المنصفة)(١٧)، عدا ما قاله المرزوقي في شرحه ديوان الحماسة : "وهذه الأبيات تُسمَّى المُنصِفة لِمَا تقابل فيها من صفات الجيشين على وجه التعادل وسَنَن التصادق"(١٨)، محاولًا تحديد المفهوم فضلًا عن تعليقات وآراء أوردها في ثنايا شرحه للقصائد المسماة بالمنصفة – سنأتي عليها في مكانها من الدراسة– و ورد في خزانة الأدب عن الطبرسي قوله: "وللعرب قصائد قد أنصف قائلوها أعداءهم فيها

(١٢) يُنظر: الشعر والشعراء، ١ / ٣٧٧. ديوان عمرو بن قميئة، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، ط١، ١٣٨٥هـ – ١٩٦٥م، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤.

(١٣) يُنظر: منهى الطلب من أشعار العرب، جمع: محمد ن المبارك بن محمد بن ميمون، تحقيق: محمد تبيل طريفي، ط١، ١٩٩٩م، دار صادر، بيروت، ٤/ ٢٠٤.

(١٤) يُنظر: خزانة الأدب، ٨ / ٣٢٧، وديوان مهلهل بن ربيعة، تحقيق: طلال حرب، ط١، الدار العالمية، مصر، ٤٢.

(١٥) يُنظر: الأصمعيات، ١٩٩.

(١٦) يُنظر: طبقات فحول الشعراء، ١ / ٢٧٥.

(١٧) يُنظر: الاشتقاق، ٢ / ٣٣٠.

(١٨) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ١/ ٤٤٩.

وصدقوا عنهم وعن أنفسهم فيما اصطلوه من حرِّ اللقاء، وفيما وصفوه من أحوالهم في إمحاض الإخاء، قد سمَّوها المُنصِفات"(١٩).

أما المعاصرون، فلم يبتعدوا عن هذين المفهومين، بل زادوا على ذلك، فالمنصفات عندهم "ضرب من ضروب الشعر العربي توخى فيها الشعراء موقف الحياد في الحكم بين قبائلهم وبين أعدائهم أو بينهم وبين خصومهم، يصفون فيها الوقائع وصفًا يحمل مشاعر الإعجاب بالخصم وشجاعته والأسف والأسى لمقتله، وقد يورد الشاعر هذا الإنصاف مفتخرًا بنفسه – فقوته من قوة أنداده – أو مادحًا معجبًا بشجاعة خصومه، أو معتذرًا عن الفرار في الحرب، فإذا حمل الشعر إحدى هذه المعاني جاز تصنيفه في خانة الأشعار المنصفة، سواء أكان بيتًا مفردًا أم مقطعة أم قصيدة"(٢٠)، فهي عندهم "فخر من يفتخر بشجاعته وقوته ويقرّ للآخرين بالفضل والبسالة، وهذا الإقرار أقرب إلى روح الفروسية والرجولة ... وهذا الضرب من الشعر الذي لا يحتكر الشجاعة لجانب دون آخر"(٢١)، ومهما كثرت المقولات والأطروحات حول مفهوم المنصفات فإنَّها لا تخرج عن هذه المفاهيم(٢٢)، ويراها بعضهم أنّها تحفل بمشاعر إنسانية راقية وتبعد عن الحقد والكراهية(٢٣)، " فيعترفون للعدو بالشجاعة وحسن البلاء في الحروب"(٢٤). وقالوا: "إنّ هذا الإنصاف وهذا الاعتراف لم يكن من باب التفاخر والتعالي، أو التوصل إلى إثبات

---

(١٩) خزانة الأدب، ٨ / ٣٢٧.

(٢٠) المنصفات من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، (دراسة موضوعاتية فنية)، مراد زعباط، أطروحة دكتوراه، الجزائر، ١٤٤٢هـ، ٢٠٢٠م، المقدمة، أ.

(٢١) الشعر الجاهلي (خصائصه وفنونه)، د. يحيى الجبوري، ط١، ٢٠١٥م، دار مجدلاوي، الأردن، ٢٥٣.

(٢٢) يُنظر: دراسات في الشعر الجاهلي، د. نوري حمودي القيسي، ١٩٧٠م ، جامعة بغداد، العراق، ١٠٤ وما بعدها، ويُنظر: شعر الحرب في العصر الجاهلي، د. علي الجندي، ط٣، ١٩٦٦م ، مكتبة الجامعة، بيروت، ٢٠٠،

(٢٣) يُنظر: الأدب الجاهلي، قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، غازي طليمات، عرفان الأشقر، ط١، ١٩٩٢م، دار الإرشاد، حمص، ١٥٠.

(٢٤) تجليات الإنصاف في شعر صدر الإسلام، مراد زعباط، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، معهد الآداب واللغات بالمركز الجامعي، الجزائر، العدد ١٠، ٢٠١٦م. ٩، ويُنظر: الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي، د. عفيف عبدالرحمن، ط١، ١٩٨٤م ، دار الأندلس، بيروت، ٣٠٢.

شجاعة الفارس"[٢٥]، وما أظنه إلا كذلك، وهذا ما سيتبين في الصفحات اللاحقة، إذ ستحاول الدراسة تتبع مؤشرات النسق الناسخ لهذا الإنصاف في القصائد الثلاث المسماة بالقصائد المنصفة والمتفق عليها عند معظم الكتاب، وهي سينية العباس بن مرداس، ونونية عبدالشارق الجُهني، وقافية المفضَّل النُّكري.

مؤشرات النسق الناسخ:

المبحث الأول: ميل الشاعر إلى قومه في الأبيات المسماة بالإنصاف

أكثر من وقف من القدماء عند دلالة مصطلح (المنصفات) وتطبيقه، كان المرزوقي في أثناء شرحه ديوان الحماسة لأبي تمام، لذا سنقف عند أقواله وتعليقاته، وسنقف أيضًا عند آراء البغدادي صاحب خزانة الأدب، الذي لم يختلف عن المرزوقي في كثير من تعليقاته، لنرى مدى توافق أقوالهما مع دلالة المصطلح. وكذا آراء المعاصرين الذين حاولوا تحديد المصطلح وزج بعض الأشعار في خانة الإنصاف التي دارت معانيه حول (العدل والرحمة والعطف والاحترام).

إنَّ ما استدعى الكتاب قديمًا اطلاق تسمية المنصفات على بعض الأشعار، ما وجدوه من تقسيم الشاعر أبياته بينه وبين عدوه قَسْم السواء، ومقابلته صفات الجيشين، فيرون أنَّ معنى الإنصاف يتولَّد "من هذه المقابلات التي ينضح بها السطح المعجمي"[٢٦]. من نحو قول العباس بن مرداس، في سينيته التي أوردها أبو تمام في الحماسة، غير أنّه روى منها أربعة أبيات على أنَّها في باب التناصف، وكذلك فعل صاحب الخزانة، وقد وردت كاملة في الأصمعيات، ومطلعها[٢٧]: [من الطويل]

لأسماءَ رسْمٌ أصبَحَ اليومَ دارِسا وأقفرَ منها رَحرَحان فراكسا

(٢٥) دراسات في الشعر الجاهلي، ١٠٤، ١١٤.

(٢٦) موضوعاتية الحركة في منصفة (عبدالشارق بن عبدالعزى الجُهني)، مراد زعباط، مجلة أبوليوس، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد الشريف، الجزائر، المجلد ١٠، العدد ١، ١٣٩.

(٢٧) الأصمعيات، ٢٠٤.

والأبيات الموسومة بالإنصاف عندهم هي(٢٨):

فلـــم أرَ مثـــلَ الحَـــيِّ حيًّـــا مُصَـــبَّحًا ولا مثلنـــا يـــومَ التقينـــا فوارســـا
أكـــرَّ وأَحْمَـــى للحقِيقـــةِ مِـــنهُمُ وأَضْرَبَ مِنَّـــا بالسُّـــيوفِ القَوانِســـا
إذا مـــا شَـــدَدْنا شـــدّةً نَصَـــبُوا لنَـــا صُـــدُورَ المَـــذاكِي والرِّمـــاحَ المَداعِســـا
إذا الخيـــلُ جالـــتْ عـــنْ صَرِيـــعٍ نُكِرُّهـــا علـــيْهِمْ فـــما يَـــرجِعْنَ إلا عَوابِسَـــا

قال المرزوقي في شرحه للبيت الأول "يقول: لم أرَ مُغارًا عليه كالذين صبَّحناهم، ولا مغيرًا مثلنا يوم لقيناهم"(٢٩)، ثم علق إثر تفسيره هذا قائلًا: "فقسَم الشهادة قَسْمَ السَّواء بين أصحابه وأصحابهم، وتناول بالمدح كل فرقةٍ منهم"(٣٠)، وعند شرحه للبيت الثاني وهو تفسير وبيان حال للبيت الأول:

أكـــرَّ وأَحْمَـــى للحقِيقـــةِ مِـــنهُمُ وأَضْرَبَ مِنَّـــا بالسُّـــيوفِ القَوانِســـا

علق قائلًا: "المصراع الأول ينصرف إلى أعدائه وهم بنو أسد، والمصراع الثاني إلى عِتْرَتِه وأصحابه"(٣١). ولا يختلف البيت الثالث والرابع عن البيتين السابقين من حيث أنَّ الشاعر قسم المواقف قسم السواء بين قومه وأعدائهم قائلًا:

إذا مـــا شَـــدَدْنا شـــدّةً نَصَـــبُوا لنَـــا صُـــدُورَ المَـــذاكِي والرِّمـــاحَ المَداعِســـا
إذا الخيـــلُ جالـــتْ عـــنْ صَرِيـــعٍ نُكِرُّهـــا علـــيْهِمْ فـــما يَـــرجِعْنَ إلا عَوابِسَـــا

تُعطينا القراءة السطحية للأربعة الأبيات معنى التناصف، الذي عناه المرزوقي في تعليقاته، في أنّ الشاعر قسم الشهادة قسم السَّواء بين أصحابه وأصحابهم، لأنَّه قابل بين صفات الجيشين،

(٢٨) الأصمعيات، ٢٠٥ – ٢٠٦.
(٢٩) شرح ديوان الحماسة، ١ / ٤٤٠.
(٣٠) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٣١) نفسه، ١/ ٤٤١، والخزانة، ٨/ ٣٢٤.

على وفق قوله: "وهذه الأبيات تُسمَّى المُنصِفة لِمَا تقابل فيها من صفات الجيشين على وجه التعادل وسَنَن التصادق"(٣٢)، وظاهرٌ أنَّ الوصف جاء شطر بشطر، أي شطر للشاعر وقومه، وشطر للعدو، ولكن بالتوجه إلى دلالة الصورة والتراكيب فإنّها تكشف عن ميل الشاعر إلى قومه.

ويبرز في هذا السياق عنصران من عناصر النسق الناسخ لمسمَّى القصيدة المنصفة، أولهما تكثير الشاعر من قوة جيشه، فقد علل المرزوقي اختيار الشاعر لفظة (فوارس) جمعًا (حتى يكون إيذانًا بالكثرة)، بقوله: "فإنْ قيل لم قال فوارس والتمييز يؤتى به موحّد اللفظ؟ قلت: إذا لم يتبين كثرة العدد واختلاف الجنس من المميز يؤتى بالتمييز مجموع اللفظ، متى أريد التنبيه على ذلك، وعلى هذا قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (٣٣)، كأنّه لما كانت أعمالهم مختلفة كثيرة نبَّه على ذلك بقوله (أعمالا)، ولو قال عملًا كان السامع لا يبعد في وهمه أنَّ خُسرهم كان لجنس واحد من أجناس المعصية، أو لعمل واحد من الأعمال الذميمة. فكذلك قوله: (فوارس) جمعه حتى يكون فيه إيذانٌ بالكثير"(٣٤)، والتنوع في العدة والعتاد وهذا يشير إلى أنَّ الأفضلية لهم، والعنصر الثاني: تصوير العدو في حالة دفاع، وقوم الشاعر في حالة هجوم، يقول الشاعر: لا يوجد أحسن منهم في حماية الأهل والأولاد والجار، ولا يوجد أحسن منا في الضرب، ويعلق البغدادي صاحب الخزانة على قول الشاعر (أضربَ منا)، قائلًا: "إذ مراد الشاعر أنَّهم ضاربون ونحن أضرب منهم، فيحصل التفضيل"(٣٥)، وهكذا يجانب الشاعر الإنصاف، في أنْ ميز قومه كمًا ونوعًا. ونجد الحال ذاتها في البيت الثالث والرابع:

إذا ما شَدَدْنا شدّةً نَصَبُوا لنَا ... صُدُورَ المَذاكِي والرِّماحَ المَداعِسا

إذا الخيلُ جالتْ عنْ صَرِيعٍ نُكِرُّها ... علَيْهِمْ فما يَرجِعْنَ إلا عَوابِسَا

(٣٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ١/ ٤٤٩.

(٣٣) الكهف، ١٠٣.

(٣٤) شرح ديوان الحماسة، ١ / ٤٤٠ – ٤٤١.

(٣٥) خزانة الأدب، ٨ / ٣٢٠

صور متقابلة يبدو ظاهرها الإنصاف، غيرأنَّها تناقضه دلالة، إذ مازال قوم الشاعر في حالة هجوم والعدو في حالة دفاع، وهذا يدل على تفضيل الشاعر ذويه مما يرجح كفته.

ومع إشارة البغدادي صاحب الخزانة إلى تفضيل الشاعر قومه، و لكن بعد انتهائه من استعراض عدة شروحات للأبيات الأربعة، أورد قول الطبرسي في المنصفات: "وللعرب قصائد قد أنصف قائلوها أعداءهم فيها وصدقوا عنهم وعن أنفسهم فيما اصطلوه من حرِّ اللقاء، وفيما وصفوه من أحوالهم في إمحاض الإخاء، قد سمَّوها المُنصِفات"(٣٦)، ولم يشرح أو يفسر أو يعلق، فهو قد أورد هذه الأبيات على أنَّها من المنصفات، وعلى وفق ما تقدَّم ليس هناك أنصاف، بل وصف للحال الدائرة بين الجيشين فيما اصطلوه من حرِّ اللقاء، فيذكر شجاعة الطرفين وخسارتهما في الحرب ليس للإنصاف، بل لبيان شدة المواجهة وقوة العدو، فالشاعر "يهمه أنْ يُذكر أنَّ الخصم كان شجاعًا صلب العود، يحسن مقارعة الأبطال"(٣٧)، يرى المرزوقي أنَّ الشاعر إنَّما يُقيم أمر عدوِّه ويُعظم من شأنه "لأنَّ ثناءه عليه وإكباره لمكانه راجع إليه"(٣٨)، فمواجهته لهذا العدو الشديد دلالة على شدته هو، فوصف العدو بالبطل "ليس إلا إشارة عكسية تصب في إضفاء الشاعر الفارس على نفسه الوصف نفسه بحجم أكبر بحكم التغلب والنصر لا من باب الإنصاف أو الاعتراف بالفضل للآخر العدو"(٣٩).

و إذا انتقلنا إلى نونية عبدالشارق، وهي ستة عشرة بيتًا على رواية ديوان الحماسة، مطلعها:

ألا حُيِّيتِ عنَّا يا رُدَيْنا نُحيِّيها وإنْ كَرُمتْ عَلَيْنا

(٣٦) المصدر نفسه، ٨ / ٣٢٧.

(٣٧) الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي، ٣٠٢.

(٣٨) شرح ديوان الحماسة، ١ / ٦٧٢.

(٣٩) صورة الآخر (العدو) في شعر الفرسان في العصر الجاهلي ، أحمد عبيد عبدالله، مجلة بحوث كلية الآداب، جامعة المنوفية، المجلد ٣٠، العدد ١١٦، ٢٠١٩م، ٩.

والأبيات الموسومة بالإنصاف هي(٤٠):

فأرسلنا أبا عمرٍو ربيئًا ... فقال ألا انعموا بالقوم عينًا
ودَسُّوا فارِسًا منهُمْ عِشاءً ... فلم نغدِرْ بفارِسِهِمْ لدَينَا
فجَاؤوا عارِضًا بَرِدًا وجئْنا ... كمِثْلِ السَّيْل نركبُ وازِعَيْنا
فنادوا يالبُهْثةَ إذْ رأوْنا ... فقلنا أحسِنِي ضرْبًا جُهينا
فلمَّا لمْ نَدَعْ قَوْسًا وسَهمًا ... مشَيْنَا نحوهمْ ومشَوا إلينا
تلأْلُؤَ مزْنَةٍ بَرَقتْ لأخرى ... إذا حَجَلوا بأسْيافٍ رَدَيْنا
شَدَدْنا شدَّةً فقتلت مِنهُمْ ... ثلاثةَ فِتيَةٍ وقتلت قيْنا
وشَدُّوا شَدَّةً أخرى فجَرُّوا ... بأرْجُلِ مِثْلِهم ورَمَوا جُوَينا
وكانَ أخي جُوَيْنٌ ذا حِفاظٍ ... وكان القتل للفتيان زَيْنًا
فآبوا بالرِّماحِ مُكسَّراتٍ ... وأُبنا بالسُّيوفِ قد انْحنَيْنا
وباتُوا بالصَّعيدِ هُمْ أحاحٌ ... ولو خفَّتْ لنا الكَلْمَى سَرَينا

وتُعدُّ عندهم "أكثر المنصفات إنصافًا، وأشدها إقرارًا بحق الأعداء، وصدقًا عن قبيلته وقبيلتهم، فلا يكاد يذكر شيئًا من صفات أهله حتى يبادر فيذكر مثله من صفات عدوه"(٤١)، من حيث أنَّ الشاعر جعل قصيدته سواء بينه وبين عدوه، موقف بموقف، فمن وصْفه ما جاء بيت ببيت، ومنه ماجاء شطر بشطر، ومنه ما جاء تركيب بتركيب في شطر الواحد، قابل في ذلك كله بين صفات الجيشين، ولكن هل كان في هذه التقابلات إنصاف للعدو، هذا ما ستجيب عليه الأسطر اللاحقة.

بدأ الشاعر وصف المعركة من إرسال العيون للفريقين للكشف عن جاهزية كل فريق واستعداده ومواطن ضعفه، فقال:

(٤٠) شرح ديوان الحماسة، ١ / ٤٤٤ – ٤٥٠.

(٤١) المنصفات، جمع وتحقيق: عبدالمعين الملوحي، ١٩٦٧م، مطابع وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، ٣٥.

فأرســـــلنا أبـــــا عمـــــرٍو ربيئًـــــا فقـــال ألا انعمـــوا بـــالقوم عينًـــا
ودَسُّـــــوا فارِسًـــــا مـــــنهُمْ عِشـــــاءً فلـــــم نغـــــدِرْ بفارِسِـــــهِمْ لـــــدَينَا

فقد أرسل قوم الشاعر ربيئة، ودسَّ العدو فارسًا، كل وصف جاء في بيت، وهذا يترجم القسمة السواء، ولكن بالتفتيش في ثنايا الألفاظ ستظهر مؤشرات للنسق الناسخ، فمنها إنَّ قبيلة الشاعر أرسلوا ربيئة، والرَّبِيئَةُ: العين والطَّلِيعةُ الذي ينظر للقوم لئلا يَدْهَمَهُم عدُوّ، ولا يكون إلاّ على جبل أَو شَرَف ينظر منه(٤٢)، في حين دسَّ الأعداء عينهم بين قبيلة الشاعر، وتركوه مع علمهم به، وما ذاك إلا دليل على ثقة الشاعر بقبيلته فلا يهمهم أنْ يعرف العدو أخبارهم وتفاصيل وضعهم الحربي، فهم أهل حرب، ومن المؤشرات – أيضًا – تبشير ربيئتهم بقرب العدو قائلًا (ألا انعموا بالقوم عينًا)، يعلّق المرزوقي أنَّ "هذا مما يُترجِم عن محبتهم لملاقاة الأعداء، وحرصهم على القتال، وتشوُّقهم للمجاذبة والنِّزاع، حتى عَدُّوا قرْبهم بشارة والالتقاء معهم غنيمة"(٤٣)، وتسوقنا الدلالة هنا إلى أنَّ الشاعر ميز ذويه بأنّهم أهل حرب وهم يفرحون لها، وما ذاك إلا ثقة بالقوة والشجاعة. وعند تصويره أول المواجهة قال:

فجَـــاؤوا عارِضًـــا بَـــرِدًا وجئْنَـــا كمِثْـــلِ السَّـــيْل نركـــبُ وازِعَيْنَـــا

تسارع الطرفان نحو بعضهما، مشبِّها إقبال العدو في كثرتهم وتعجُّلهم بمطر فيه بـرَد، وهم كالسيل الذي لا يبقي ولا يذر. وبالتوجه إلى دلالة التشبيهين في الصورة فإنَّها تلوِّح بنسق مضمر يوحي بميل الشاعر إلى تعظيم قوة قومه، إذ لهم اندفاع قوي يأخذ كل شيء في طريقه لا يبقي ولا يذر، فلا مقارنة بين التشبيهين، وعلى هذا فإننا لا نجد تساويًا بينهما صوتًا واندفاعًا وقوةً. ونتابع قوله:

فنـــــادوا يالبُهْثـــــةَ إذْ رأوْنـــــا فقلنـــا أحسِـــنِي ضرْبًـــا جُهينـــا

(٤٢) يُنظر: لسان العرب، مادة (ربأ)
(٤٣) شرح ديوان الحماسة، ١ / ٤٤٦.

وهنا ذكر للفريقين أيضًا، ولكن صورة العدو في إطار استغاثة، وصورة قوم الشاعر في إطار هجوم. وقال:

فلـــمَّا لمْ نـــدَعْ قَوْسًـــا وسَـــهمًا مشَـــيْنَا نحـــوهمْ ومشَـــوا إلينـــا
تلأْلُـــؤَ مزْنَـــةٍ بَرَقـــتْ لأخـــرى إذا حَجَلـــوا بأسْـــيافٍ رَدَيْنـــا

مما هو بين أنَّه جعل قبيلته السباقة في الهجوم (مشَيْنَا نحوهمْ ومشَوا إلينا) ثـمَّ وصـف مشي عدوه بالحجلان ومشيهم بالرَدَيان، أنكر عليه المرزوقـي هـذا الوصـف: "إذا كـان مشـيهم إلينـا حجلًا، كان مَشينا إليهم رَدَيانًا، والرَّدَيان فوقَ الحجلان ... فهو أسرع من الحجَـلان، إذ كـان في الحجلان تقارب الخطو كمشي المقيد ووثْبته"(٤٤)، وكانت علة إنكـاره أنّ الشـاعر جعـل أعـلى الصفتين لنفسه وذويه في حين هو شاعر فارس يتحـرى النصـف(٤٥) وهـذا تفضـيل وتمييـز لا يتوافق مع الإنصاف، وبهذا التمييز سمح للنسق الناسخ بعمل فعله لتميـل دلالـة الأبيـات عـن الإنصاف إلى الفخر، ويزداد هذا الميل كلما توغلنا في القصيدة، من ذلك قوله:

شَـــدَدْنا شـــدَّةً فقتلـــت مِـــنهُمْ ثلاثـــةَ فِتيَـــةٍ وقتلـــت قيْنـــا
وشَـــدُّوا شَـــدَّةً أخـــرى فجَـــرُّوا بأرْجُـــلِ مِـــثْلِهم ورَمَـــوا جُوَينـــا
وكـــانَ أخـــي جُـــوَيْنٌ ذا حِفـــاظٍ وكـــان القتـــل للفتيـــان زَيْنًـــا

من تعليلات المرزوقي في أثناء تفسيره قول الشاعر (وشدوا شدة أخرى): "يجوز أنْ يكـون أراد توالى بيننا حملتان، الأولى منا، والأخرى منهم ... ويجوز أنْ يكـون أراد أنْ يبـين أنَّهـم كـانوا السابقين والمبتدئين، فوصف شدتهم بالأخرى لِيُعْلَمَ أنَّ المتقدم في الذكر كانت لـه الأولى"(٤٦)، ومن هذا التفسير نصل إلى أنّ الشاعر أراد أنْ تكون الأفضلية لقومه.

(٤٤) شرح ديوان الحماسة، ١ / ٤٤٨.
(٤٥) يُنظر: المصدر نفسه، ١ / ٤٤٩.
(٤٦) شرح ديوان الحماسة، ١ / ٤٤٩.

وفي قول الشاعر(قتلت منهم ثلاثة وقتلت قينا)، تحركت (النحن) إلى (الأنا)، في قوله (قتلت) التي تكررت في البيت، ثم قتل (قيْنا) و "وقين: اسم رجل كان مشهورًا فيهم بالبأس والنَّجدة، فلذلك عَيَّن عليه"(٤٧)، فقتله عدوًّا شديدًا مشهودًا له بالبسالة أو هزيمته يعني نصرًا عظيمًا سيكون له ذكره ويخلد صاحبه، وأردف البيت السابق ببيت يصف فيه أخاه جوينًا:

وكانَ أخي جُوَيْنٌ ذا حِفاظٍ وكان القتل للفتيان زَيْنًا

جعل قتلة أخيه شرفًا وزينة، إذ "نبَّه على أنَّه بحُسنِ محافظته على الشرف، وجميل مدافعته دون العشيرة ثبتَ حتى قُتل، وأنَّ قِتلته كانت محمودة تَزين و لا تشين"(٤٨). وفي قوله:

فآبوا بالرِّماحِ مُكسَّراتٍ وأُبنا بالسُّيوفِ قد انْحنَيْنا

علق المرزوقي " جعل فيه أعلى الصفتين لنفسه وذويه، وإنْ كان الظاهر من قصده في الوصف الجري على سَنَن النِّصف"(٤٩). فهو يُنكر هذا التفضيل، كما أنكر عليه من قبل في الرَّدَيان والحجَلان وفي وصف أخيه بِحُسن الحفاظ، لأنَّ هذا "ليس من التناصف في شيء"(٥٠).

رفض بعضهم إنكار المرزوقي لقول الشاعر السابق، إذ يخرج القصيدة من باب التناصف(٥١)، ورأوا في ذلك "مبلغ الإنصاف فقد جعل ذلك الوصف موزَّعًا بين الطرفين، فلا فضل لقبيلة على أخرى"(٥٢). وذلك لأنَّ الظاهر أنَّ الشاعر قسم البيت على حد سواء بين

---

(٤٧) المصدر نفسه، ١ / ٤٤٨.

(٤٨) نفسه، ١ / ٤٤٩.

(٤٩) نفسه، الصفحة نفصها.

(٥٠) نفسه، ١ / ٤٥٠.

(٥١) يُنظر: المنصفات، ٣٦،

(٥٢) التوالد السردي في القصائد المنصفات، قراءة في قصيدة عبد الشارق الجُهني، د. صباح غرايبية، مجلة الآداب، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة، الجزائر، عدد ١٥، ديسمبر ٢٠١٥م، ٢٢.

الفريقين، ولكن الدلالة نفت ادعاء الإنصاف، ذلك أنَّ الشاعر مال إلى قومه، وزاد أنْ أردف البيت بما ينسخه في قوله:

وبـــاتُوا بالصَّـــعيدِ لهُـــمْ أحـــاحٌ ولـــو خفَّـــتْ لنـــا الكَلْمَـــى سَرَينـــا

إنَّ تصويره لحال العدو تبرز نفسية الشاعر إذ جعل العدو في حالة المرء المشرف على الموت، (باتوا لهم أحاح) "وقد قيل إنَّ الأحاح العَطِش، والمشرف على الهلاك يعطش"(٥٣)، في حين قال عن قومه (ولو خفت لنا الكلمى سرينا) توحي بأنّ جرحاهم يمكن علاجهم وليس مشرفين على الموت، حتى يعودوا للقتال.

وهكذا الحال مع قصيدة النُّكري، إحدى القصائد المسماة بالمنصفات؛ إذ صور الشاعر ما اصطلاه الطرفان من حرَّ اللقاء فوصف عدوه كما وصف قومه، فمن ذلك نحو قوله(٥٤):

تَلاقَينـــــا بَغَيْبَـــــةِ ذي طُرَيْـــــفِ وبَعضُـــهمُ عـــلى بَعْـــضٍ حَنِيـــقُ
فجَـــاؤُوا عارِضًـــا بَـــرِدًا وجئْنـــا كسَـــيْلِ العِـــرْضِ ضـــاقَ بـــه الطَّريـــقُ
مَشَـــيْنا شـــطْرَهُمْ ومَشَـــوْا إلْيْنَـــا وقُلنَـــا اليـــومَ مـــا تُقْضَى الحُقـــوقُ

بدأ بتحديد المكان ورسم وضعية الفريقين في حال الهجوم تقودهم الأحقاد والضغينة، فالشاعر في هذا الموقف لم يغفل الإشارة إلى أهمية الحالة النفسية التي لها دورها في تأجيج الحروب في النفوس، ثم يعطي صورة فوقية للموقف، رسم فيها اندفاع الفريقين نحو بعضهما، كما هي الحال عند عبدالشارق الجُهني، قال بعض الباحثين المعاصرين: "ويصدق الشاعر عن جيش أعدائه بأنْ يصفه مشبهًا إياه بالسحاب المعترض كثافة كقول المفضل النُّكري:

فجَـــاؤُوا عارِضًـــا بَـــرِدًا وجئْنـــا كسَيْلِ العِـــرْضِ ضـــاقَ بـــه الطَّريـــقُ"(٥٥)

(٥٣) شرح ديوان الحماسة، ١ / ٤٥٠.

(٥٤) الأصمعيات، ٢٠٠ -٢٠١.

ويرى أنَّ قصد الشاعر من الشطر الأول "كثرة العدد الذي يبين عظم قدر الأعداء"(٥٦)، والصورة هي ذاتها التي وردت عند عبدالشارق الجهني، غير أنَّ النُّكري أضاف قوله (ضاقَ به الطَّريقُ) وصفٌ يعزز ميل الشاعر إلى الفخر بقوة قومه المهلكة بلا شك. ولعل القارئ يلمح – أيضًا – بروز النسق الناسخ في القصيدة واعتلاءه صهوتها بأنْ جعل المبادرة لهم في بدء المواجهة (مشينا شطرهم) أي حيث كانوا. فهم السباقون والأفضلية لمن كانت له المبادرة، وتشتد المعركة لتتحول من رمي السهام والرماح إلى أعلى درجاتها وهي المواجهة المباشرة بين الفريقين بالسيف قائلًا(٥٧):

فألقيْنا الرِّماحَ وكان ضرْبٌ ... مَقيلُ الهامِ كلٌّ ما يَذوقُ
كأنَّ هَزيزَنا لَمَّا ألْتَقَيْنَا ... هزِيزُ أَباءةٍ فيها حَريقُ
بكُلِّ قرارَةٍ وبكلِّ رَيعٍ ... بَنانُ فتىً وجُمْجُمَةٌ فلِيقُ
وكمْ مِن سيِّدٍ مِنَّا ومِنْهمْ ... بذِي الطَّرْفاءِ مَنْطِقُهُ شَهيقُ
فأشْبَعْنا السِّباعَ وأشبعُوها ... فراحتْ كلُّها تَئِقٌ يفُوقُ
تركْنا العُرْجَ عاكِفةً علَيْهمْ ... وللغِرْبانِ من شِنَعٍ نَغِيقُ
فأبْكَيْنا نساءَهُمُ وأبكَوْا ... نساءً ما يَسوغُ لهُنَّ رِيقُ
يُجاوِبْنَ النِّياحَ بكُلِّ فجْرٍ ... فقدْ صحِلَتْ مِنَ النَّوْحِ الحُلُوقُ
قتلنا الحارثَ الوضَّاحَ منهمْ ... فخرَّ كأنَّ لَمَّتَه العُذُوقُ
وقد قتلوا به منا غلامًا ... كريمًا لمْ تُؤشَّبْهُ العُروقُ
وسائلةٍ بثَعْلَبةَ بن سَيْرٍ ... وقد أودَتْ بثَعْلَبةَ العَلُوقُ

=

(٥٥) القصائد المنصفة، أسامة علي أحمد أبو علامة، رسالة ماجستير، كية الآداب، جامعة الخرطوم، السودان، ٢٠٠٣م، ٦١.

(٥٦) المصدر نفسه، ٦٢.

(٥٧) الأصمعيات، ٢٠١ – ٢٠٣.

رأى الكاتبان غازي طليمات وعرفان الأشقر أنَّ المفضل صور " الحرب من بدايتها إلى نهايتها تصوير المؤرخ العادل المتجرد من الهوى، البريء من التعصب والحقد، فذكر أنّه قُتل فيها من الفريقين سادة نُجُب، أكلت الضواري لحومهم حتى اتخمت، وناحت عليهم نساء القبيلتين حتى شُرقن بدموعهن، وجفت حلوقهن"(٥٨)، فهما بهذا الحكم فقد ألبسا الشاعر عباءة المؤرخ وجعلاه عادلًا، وحاول غيرهما – أيضًا – إثبات القصيدة في باب الإنصاف؛ لأنَّ الشاعر وقف موقف الإنصاف ووصفَ سير المعركة بحيادية(٥٩)، فقسَّم الموقف بينه وبين أعدائه(٦٠)، وتساوى عدد القتلى لدى الطرفين، وشبعت الوحوش من القتلى(٦١). وإنَّه عدل "مكافئًا بين جيشه وجيش أعدائه فلم يلن أحدهما للآخر"(٦٢)، حقيقة أنَّ كلًّا "من طرفي الصراع يجد عناصره في النهاية وقد أصبحت طعامًا للسباع والضباع والغربان"(٦٣)، لأنَّ الشاعر يصف حالًا دائرةً بين فريقين في معركة وهما يصطليان حرَّ اللقاء، لحظة الصدام و الالتحام، وطبيعي أنْ يكون هناك جرحى و قتلى من الطرفين، وتبكي النساء حزنًا وأسى، فهو لا يسعى في تصويره هذا إلى الإنصاف، ولو فتشنا بين ثنايا الألفاظ لظهر ميل الشاعر إلى قومه، من نحو قوله:

فأبْكَيْنَا نساءَهُمُ وأبكَوْا نساءً ما يَسوغُ لهُنَّ رِيقُ
يُجاوِبْنَ النِّياحَ بكُلِّ فجْرٍ فقدْ صحِلَتْ مِنَ النَّوْحِ الحُلُوقُ

فالشاعر في بيته هنا قد أضاف الضمير (هم) إلى كلمة النساء الأولى – نساء العدو – في حين قطع الإضافة عند وصف نساء قومه، فجاءت نكرة، فقال أحد الدارسين "وفي هذا ما يرشح إلى

(٥٨) الأدب الجاهلي، قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ١٥٠.

(٥٩) يُنظر: المنصفات من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، ٤٠.

(٦٠) يُنظر: المنصفات في الشعر الجاهلي، ثابت محمد صغير مقبل، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، ١٩٨٧م، ٤٠٤.

(٦١) يُنظر: القصائد المنصفة، ٦٧.

(٦٢) المصدر نفسه، ٦٣، ويُنظر: المنصفات في الشعر الجاهلي، ٤٠٣.

(٦٣) جماليات الشعر العربي (دراسات في فلسفة الجمال في الوعي الشعري الجاهلي)، د. هلال جهاد، ط١، ٢٠٠٧م، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٣٧٢.

أنَّ التنكير في كلمة (نساء) يراد به التعظيم"(٦٤)، أي تعظيم نساء قومه، وهذا يرجح كفة الفخر، ومع إلماحه بأنّ الشاعر إنَّما أراد الفخر قال: "إنّ قَطْعَ الكلمة عن الإضافة لا يغض من نصفته"(٦٥)، فيصرُّ على أنَّ القصيدة منصفة للعدو، و "لا تهتضم فريقًا وتعلي من الآخر، وإلا ما كانت كذلك يتبدى فيها روح الإنصاف ويستعلن، ومن ثم فالشاعر المنصف مطالب بأنْ يرصد الحقائق ويتحرَّاها وأنْ يكون كالعدسة اللاقطة التي تغطي كل معلم على أرض المعركة"(٦٦). وبهذا يكون ما نقرأه درسًا في التاريخ أو غيره، ولكنه ليس شعرًا. يواصل الشاعر مسيرته الفخرية قائلًا:

قتلنا الحارثَ الوضَّاحَ منهمْ ... فخرَّ كأنَّ لَمَّتَه العُذُوقُ
وقد قتلوا به منا غلامًا ... كريمًا لمْ تُؤشَّبْهُ العُروقُ
وسائلةٍ بثَعْلَبةَ بن سَيْرٍ ... وقد أودَتْ بثَعْلَبةَ العَلُوقُ
وأفلتنا ابنُ قُرَّانٍ جريضًا ... تمرُّ به مُساعِفَةً حروقُ
تشقُّ الأرض شائِلةَ الذُّنابي ... وهاديها كأنْ جِذْعٌ سَحوقُ

فقوم الشاعر قتلوا رؤساء الحرب من العدو وسادتها، الحارث وثعلبة بن سيار وثالث منهم فرَّ مذعورًا بفرسه، أما قوم الشاعر فقُتل منهم غلام كريم جاء الاسم نكرة ولكنَّه وصَفَه بالكريم صافي النسب، وهذا من باب الفخر بأصالة أفراد قبيلته، ومما يُلاحظ لم يعطِ القتيل اسمًا أو صفة تشير إلى مكانته، فهو ليس من ساسة القوم، ولكن كي يسمح لنسق الفخر بالظهور قال كريم ماجد، في حين عَدَّدَ وسمَّى قتلى العدو.

(٦٤) المنصفات في الشعر الجاهلي، ٤٠٥.
(٦٥) المصدر نفسه. الصفحة نفسها.
(٦٦) نفسه، ٤٠٠.

المبحث الثاني: أبيات الفخر

مما يُلاحظ في القصائد الموسومة بالإنصاف أنَّها تحمل أبيات فخر، تطيح بالعدو وتتعالى عليه، من نحو قول العباس في سينيته مباشرة بعد الأبيات الأربعة المسماة بالأبيات المنصفة، والتي أدخلت القصيدة باب المصفات، وجدنا أنَّ القصيدة تُشهر الفخر على منوال معلقة عمرو بن كلثوم، من نحو قوله(٦٧):

نُطاعِنُ عن أحسابِنا برماحِنا ونضربهم ضرْبَ المُذِيدِ الخوامِسا
وكنتُ أمامَ القومِ أوَّلَ ضاربٍ وكانَ وطاعنتُ إذْ كانَ الطِّعانُ تخالُسا
شُهودِي مَعبَدٌ ومُخارِقٌ وبِشرٌ وما استشْهدْتُ إلا الأَكابِسا

وقال:

ولو ماتَ مِنْهمْ مَنْ جرَحْنا لأصبَحتْ صباعٌ بأكنافِ الأراكِ عَرائِسا
فإنْ يقتُلوا منَّا كريمًا فإنَّنا أبَأنا به قَتْلى تُذِلُّ المعاطِسا
قتلْنَا به في مُلتَقى الخيلِ خمْسَةً وقاتِلَهُ زِدْنا مع الليلِ سادِسًا

أبيات عديدة – خاصة هذين البيتين الأخيرين – جعلت الملوحي جامع شعر المنصفات يقول: "ما نرى في ذلك إنصافًا، ولعلَّ العباس بن مرداس قد بدأ يتخلى عن الإنصاف في قصيدته"(٦٨)، وأضاف قائلًا: "والحق أنّه تجاهل، وترك الإنصاف في البيتين السابقين حين ذكر أنَّه قتل بواحد من أهله ستة من أعدائه، وبذلك لا نستطيع أنْ نعد هذه القصيدة منصفة كلها"(٦٩) وفي توضيحه لمواطن الإنصاف يرى: " أنّ شهرة القصيدة على أنّها منصفة يعتمد في

(٦٧) الأصمعيات، ٢٠٦ –٢٠٧.
(٦٨) المنصفات، هامش ٧١.
(٦٩) المنصفات، هامش ٧١.

الدرجة الأولى على أبيات أربعة أو خمسة من تسعة وعشرين بيتًا"(٧٠). حتى في هذه الأبيات الأربعة لوجد القارئ أنَّ الشاعر يميل فيها إلى قومه.

وهذا دارس آخر معاصر يحاول وضع مسوغات وعلل، قائلًا: "تكشف هذه الأبيات عن عدم رضا الشاعر بنتيجة المعركة فأخذ يعدِّد أسباب الإخفاق، فأظهر صورة العدو المتحفِّز المستعد المقاوم في قالب من الإنصاف حمل معاني الإشادة بالخصم والإعجاب بجاهزيته وحسن استعداده"(٧١)، لعل الشاعر غير راضٍ عن نتيجة المعركة؛ إذ فاجأ العدو بثقله غير أنَّ النتيجة لم تكن مرضية له، وصحيح أنَّ قوم الشاعر أوقعوا مقتلة في العدو ولكنْ لم يوقعوا هزيمة نكراء تُساق فيها الغنائم وتسبى النساء؛ لهذا شعر بأنَّ حملتهم على العدو لم تنجز كما أُريد لها؛ فاختلق الأعذار في إخفاقهم، فأخذ يشيد بأعدائهم بأنَّهم كانوا شديدي البأس وأهل حرب، ولكن ليس للإنصاف، بل لوضع الأعذار، فالأبيات كما أوضحنا مال فيها الشاعر إلى قومه وهي تضمر فخرًا قبليًّا، وقد أنكر المرزوقي على الشاعر المنصف أنْ يميل إلى قومه بأنْ يجعل أعلى الصفتين لنفسه وذويه(٧٢).

ومن نحو قول النكري(٧٣):

رَمَيْنا في وجوهِهِمُ برشْقٍ ... تغَصُّ به الحناجرُ والحُلُوقُ
كأنَّ النَّبلَ بينَهمُ جَرادٌ ... تُكَفِّيه شَآمِيَةٌ خرِيقُ
وبَسْلٌ أنْ تَرى فيهم كَمِيًّا ... كَبَا لِيَدَيْه إلا فيه فُوقُ
يُهَزْهِزُ صَعْدَةً جرداءَ فيها ... سِنانُ المَوتِ أو قَرْنٌ مَحِيقُ

قال أحدهم لإثبات الإنصاف: "كانت النبال بين الفريقين كأسراب الجراد الذي حملته ريح الشمال"(٧٤)، وكأن الفريقين يتراشقان بالنبال، ولكن الصورة تقول غير ذلك، فالسهام

(٧٠) المنصفات، ٥٧.
(٧١) المنصفات من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، ٣٩.
(٧٢) يُنظر: شرح ديوان الحماسة، ١ / ٤٤٩.
(٧٣) الأصمعيات، ٢٠١.

انطلقت من قبيلة الشاعر (رَميْنا في وجوهِهِمُ) فقتلت أفراد العدو، وهذا من مؤشرات النسق الناسخ، يحمل لواء الفخر ويزيح الإنصاف، وبتتبع الأبيات نجد النسق الناسخ يحيق بهذا الإنصاف فيخرجه إلى باب الفخر وتعظيم شأن القبيلة وتضخيم الذاتية القبلية التي هي منوال الشعراء في شعر الحروب والأشعار الحماسية.

إنَّ معطيات التراكيب والصور تكشف عن فارس جاهليّ ينشد نشيد الفخر، وتخط ريشته ملامح النصر، فالشاعر يرسم صورة توضح كيف أنَّ سهام قومه طارت قاصدة جيش العدو وأصابتهم في مقتل، وتستقر في أجساد أفراده أسنة الرماح، التي تحمل الموت فيهز الفارس المصاب جسده ألمًا وحشرجة، إنّه تصوير للحظة طلوع الروح، لفرسان الجيش المعادي، ومن دلائل الفخر أيضًا إشادة الشاعر بقوة سلاح قومه، فسهامهم وقسيهم مصنوعة من نبات شديد(٧٥):

وجدْنا السِّدْرَ خَوَّارًا ضَعيفًا وكانَ النَّبْعُ مَنْبِتُهُ وَثِيقُ

وفي باب الفخر قال:

لقِينا الجَهْمَ ثَعَلبَةَ بن سَيْرٍ أضَرَّ بمَن يُجَمِّعُ أو يسُوقُ
لَدَى الأعلامِ مِن تلَعاتِ طفلٍ ومِنهُمْ مَن أضَجَّ بهِ الفُروقُ

فالمدعو (الجَهْمَ ثَعَلبَةَ بن سَيار) – من قادة العدو – لم يجرْ على قومه إلا القتل والدمار إذ أضر بهم عندما جمعهم لقتال قوم الشاعر فقد كان مخطئًا في سعيه، وما ذاك إلا فخر بالذاتية، يبين مدى ثقة الشاعر بفوز قومه لأنهم الأقوى والأفضل، وكان على الرجل أنْ يفكر قبل أنْ يزج بقومه في هذه الحرب، هذا ما توحي به دلالة التراكيب في البيتين.

=

(٧٤) المنصفات من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، ٤٢.

(٧٥) الأصمعيات، ٢٠١.

فلا نرى في الأبيات السابقة سوى شاعر جاهلي يتغنى بالذاتية القبلية أي "النحن القبلية وهي النحن المتضخمة أصلًا والنافية للآخر بالضرورة الوجودية"(٧٦)، وبهذا الذاتية تتكاثف مؤشرات النسق الناسخ في إخراج القصيدة من باب الإنصاف في هذه الأبيات، وما بعدها، ومن ذلك تصويره للفار من المعركة في قوله(٧٧):

وأفلتنا ابنُ قُرَّانٍ جريضًا تمرُّ به مُساعِفَةً حروقُ
تشقُّ الأرض شائِلةَ الذُّنابي وهاديها كأنْ جِذْعٌ سَحوقُ

صورة مخزية للعدو إذ صور فرار أحد سادتهم مدققًا في تفاصيل هروبه على دابته، والفرار خزاية كما قال عامر بن الطفيل محدثًا حصانه(٧٨): [من الطويل]

إذا ازْوَرَّ من وَقْعِ الرِّماحِ زجرْتُهُ وقتُ له ارجَعْ مُقبلًا غيرَ مُدبرِ
وأنْبأْتُهُ أنَّ الفِرارَ خَزايةٌ على المرءِ ما لمْ يُبلِ عُذرًا فيُعذَرِ

هذه هي صورة العدو قتيلان من سادتهم وفار كالجبان، فأين الإنصاف، ألغاه النسق الناسخ، ذهب به الفخر الذي يملأ جوانح الشاعر، فلا يستطيع التخلص منه أو البراء من بعض أعراضه، وفي خاتمة القصيدة آخر ما يبقى في الاسماع ويتردد في اللسان، جاء به بما يتلاءم ورغبة الشاعر، فقال(٧٩):

فلمَّا استَيْقَنوا بالصَّبر مِنَّا تُذكِّرَتِ الأواصرُ والحقوقُ
فأبقَيْنَا ولو شِئنَا تَرَكْنا جُحيمًا لا تقودُ ولا تَسوقُ
وأنْعمْنا وأبْأَسْنا عليهمْ لنا في كلِّ أبياتٍ طليقُ

(٧٦) النقد الثقافي، ١٢٠-١٢١.
(٧٧) الأصمعيات، ٣٠٣.
(٧٨) الأصمعيات، ٢١٥.
(٧٩) المصدر نفسه، ٢٠٣.

تَغنَّى الدراسون بإنسانية خاتمة القصيدة وبخاصة البيت:

فلـــمَّا اســـتَيْقَنوا بالصَّـــبر مِنَّـــا تُـــذكِّرَتِ الأواصرُ والحقـــوقُ

التي بدا فيها انتصار أواصر القرابة على الأحقاد – كما يرونها – من نحو قولهم: "ثم انتهت المعركة نهايتها المفجعة، وهي الحسرة القاتلة، والندم الشديد على ما قطعت الحرب من وشائج، في صراع أرعن، لم يستطع المتحاربون أنْ يدركوا رعونته إلا في نهاية المعركة، وحينما أدركوها ندم قوم الشاعر، وأبقوا على البقية الباقية من بني لجيم أعدائهم الأصدقاء، وأقربائهم الذين عليهم حقوق، فكان نصرهم على أضغانهم أجدر بالفخر من نصرهم على إخوانهم"(٨٠). وقول آخر: "و تتجلى روعة المفضل النُّكري في منصفته تلك في أبياته الثلاثة الأخيرة التي كانت نهاية المطاف في القصيدة، حيث ذكر أنّ الأعداء تابوا إلى رشدهم وآبوا إلى المسلك الصحيح بعد أنْ رأوا عشيرة الشاعر تتزود بالصبر في المعركة، فقد ثبتوا مع فداحة الخسارة وجسامة الأهوال، وهنا ينعطفون إلى التراحم ويستجيبون لداعي الأواصر ... وتتوقف المعركة ... تجاوبًا مع هذه العواطف الرقيقة، وقد كان بالوسع أنْ يفنى هذا الفريق الذي يمثل قبيلة لجيم"(٨١)، فقد تحولت "مشاعر الحقد والكراهية التي تغذيها حالة الحرب إلى تقارب ورغبة في التعرف على الآخر ونلمس مواضع ألمه ومعاناته من خلال ألم الذات ومعاناتها، إنَّ كل منهما يواجه المصير نفسه ولا منتصر إلا الحرب التي تبدد إنسانيتهما معًا"(٨٢)

ولكن يتلاشى الإنصاف، ويستعلي الفخر، لتكثيف مؤشرات النسق الناسخ البارزة، من ذلك تكرار ضمير (النحن) العائد إلى قوم الشاعر الملحق بالأفعال (أبقينا، شئنا، تركنا، أنعمنا، أبأسنا، لنا)، تكثيف صارخ لتعظيم الذاتية، فمعطيات الأفعال المتعلق بها (نا) – النحن القبلية – تشيع دلالة الفخر المطلق، يقول : "ولو أردنا لما قامت لقبيلة لُجيم قائمة، ولم تستطع قود الخيل ولا سوق الإبل، وهكذا أنعمنا بالبقيا عليهم وأبأسنا بقتلهم، ففي كل بيت من بيوتهم أسير

(٨٠) الأدب الجاهلي، ١٥٠.

(٨١) المنصفات في الشعر الجاهلي، ٤٠٦.

(٨٢) جماليات الشعر العربي، ٣٧٢.

أطلقنا سراحه"(٨٣) هكذا شرح جامع هذه المنصفات ومحققها عبدالمعين الملوحي ولم يجانبه الصواب، ولكن الملوحي يرى أنّ الشاعر في هذ الأبيات جانبه الصواب قائلًا: " وكان من حقه وهو المنصف أنْ يقول: وأبقوا علينا وأنعموا وأبأسوا ففي كل بيت من بيوتنا أسير أطلقوا سراحه"(٨٤)، ليتقابل في البيتين الأخيرين صفات الجيشين، ويتحقق بذلك الإنصاف كما يريدون.

المبحث الثالث: مدح الشاعر العدو

ومن أهم السمات التي دفعت الدارسين إلى وسم القصائد بالمنصفات، مدح الشاعر عدوه، من نحو قول العباس بن مرداس(٨٥):

فلمْ أرَ مِثْلَ الحيِّ حيًّا مصَبَّحًا ولا مثلنا لَمَّا التقينا فوارسا
أكرَّ وأحْمى للحقيقةِ مِنهمُ وأضربَ منَّا بالسُّيوفِ القوانِسا

توحي الأبيات بمدح الشاعر عدوه، غير أنَّه جعلهم كما أسلفنا في إطار دفاع وحماية وقوم الشاعر هم المهاجمون، وعلى هذا فالمدح لم يأتِ به بغرض ثناء العدو والإعلاء من شأنه، بل العكس.

لعل قارئ القصيدة يلمح بريق إنصاف في قول الشاعر مادحًا خصمه(٨٦):

وقَرَّةُ يحْميهمْ إذا ما تَبدَّدُوا ويطعِّنُنا شَزْرًا فأبرَحتَ فارِسًا

غير أنَّه يتفاجأ بأبيات بعده تلغي العدو وليس الإنصاف فحسب، من نحو قوله(٨٧):

ولو ماتَ مِنْهمْ مَنْ جرَحْنا صباعٌ بأكنافِ الأراكِ عَرائِسا

---

(٨٣) المنصفات، هامش ٢٧.
(٨٤) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٨٥) الأصمعيات، ٢٠٥.
(٨٦) الأصمعيات، ٢٠٦.
(٨٧) المصدر نقسه، ٢٠٦، ٢٠٧.

لأصبَحتْ فإنْ يقتُلوا منَّا كريمًا فإنَّنا أبَأنا به قَتْلى تُذِلُّ المعاطِسا
قتلْنَا به في مُلتَقى الخيلِ خمْسَةً وقاتِلَهُ زِدْنا مع الليلِ سادِسًا

وهذا النُّكري وقد اتجه إلى مدح عدوه قبل أنْ يأخذ في وصف المعركة ، قائلًا(٨٨):

فإنّكَ لو رأيتَ غداةَ جِئْنا بِبَطْنِ أثالَ ضاحِيَةً نَسُوقُ
فِداءٌ خالتِي لبَنِي حُيَيٍّ خصوصًا يومَ كُسَّ القَومِ رُوقُ
هُمُ صَبَرُوا وصَبرُهُمُ تَليدُ على العَزَّاءِ إذ بَلَغَ المَضِيقُ
وهُمْ دَفعُوا المنِيَّةَ فاستقلَّتْ دِراكًا بعدما كادَتْ تَحِيقُ

تشير الأبيات إلى أنَّ بني حيّ وهم أعداء الشاعر واجهوا معركة شرسة، صبروا عليها وصبرهم متجذر فيهم، فرسانهم دفعوا المنية عن القبيلة يوم كشرت عن أنيابها وكادت أنْ تحيق بهم، فالأبيات "صورة مجملة ترسم موقف الأعداء من بني حيّ في هذه المعركة"(٨٩).

يرى الدكتور القيسي أنَّ الشاعر "أبدى إعجابه بأعدائهم بني حُيي وأنصفهم إنصافًا ظاهرًا"(٩٠)، ويسهم أحد الدارسين في محاولة أخرى لإضفاء صفة الإنصاف على القصيدة بقوله إنَّ "الجملة الاعتراضية هنا (صبرهم تليد) تضيف معلمًا من معالم الإنصاف يتجلى في أنّ هؤلاء أرباب حرب وضرب"(٩١). وثالث يرى أنّه قد أنصف فرسان العدو فقد أسبغ عليهم صورة ماجدة من صور البطولة الخارقة(٩٢). فإنْ كان ظاهر الأبيات إعجاب الشاعر بأعدائه والثناء عليهم، فإنّها تشي بنسق مضمر يوحي بالفخر بالذاتية القبلية، و تلوح بقوة الطرف الآخر – قبيلة الشاعر – التي جاءت علانية جهارًا نهارًا تسوق الخيل مستعدة للمعركة، فلم يكن الموت

(٨٨) نقسه، ٢٠٠.
(٨٩) المنصفات في الشعر الجاهلي (دراسة ونقد)، ٣٩٨.
(٩٠) دراسات في الشعر الجاهلي، ١٠٥
(٩١) المنصفات في الشعر الجاهلي، ٣٩٩.
(٩٢) يُنظر: المصدر نقسه، ٤٠١.

الذي واجهه العدو إلا قبيلة الشاعر، وما ذاك إلا وسيلة من وسائل الفخر غير المباشر، "فمن شأنْ الأبطال الشعراء أنْ يصفوا أعداءهم بالشجاعة وليس ذلك لتحري الصدق والإنصاف بقدر ما هو تنويه بشجاعة أنفسهم، إذ لا يغلب الشجاع إلا الأشجع منه، ولا يكرُّ عليه ويهاجمه إلا بطل مغوار لا يبالي في إقدامه أي الخطوب اقتحم"(٩٣)، بل إنّه في وصفه هذا يضعنا "أمام مسألة أخرى، وهي المبالغة في بيان شجاعته ومعرفته بفنون القتال التي هيأت له فرصة التفوق على خصمه"(٩٤) هذا التفوق الذي ظهر في خاتمة القصيدة في قوله:

فأبْقَيْنَا ولو شِئْنا تَرَكْنا ... لُجَيمًا لا تقود ولا تسوق

وأنْعمْنَا وأبْأسْنَا عليهم ... لنا في كلِّ أبياتٍ طليق

وهذا ما يصوره عنترة عن عدوه في قوله الذي عُدَّ من شعر الإنصاف(٩٥):

ومدججٍ كرِهَ الكُمَاةُ نِزالَه ... لا ممعنٍ هرَبًا ولا مسْتسلِمِ

رسم عنترة صورة بغاية الكمال لعدوه، فهو فارس بطل كامل العدة تهابه الأبطال، ولا يهابها ولا يتراجع، لكن عنترة تمكَّن من الفتك به، مفصلًا في طريقة قتله للفارس قائلًا(٩٦):

جادت له كفِّي بعاجل طعنة ... بمثقَّفٍ صدْقِ الكعُوبِ مقوم

فشككْتُ بالرمحِ الأصمِّ ثيابَه ... ليس الكريمُ على القنا بمحرمِ

(٩٣) صورة الآخر (العدو) في شعر الفرسان في العصر الجاهلي، ٧.

(٩٤) شعر الفرسان في العصر الجاهلي، الوظائف والدلالات، رحيق صاح فنجان الصالح، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة ذي قار، العراق، ٥٢.

(٩٥) شرح ديوان عنترة، تحقيق: مجيد طرَاد، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٧٣.

(٩٦) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

ولا نجد لذاك المدجج بالسلاح، والمتأهب أية ردة فعل له، يرى بعضهم أنَّ في امتداح عنترة عدوه وإثبات الشجاعة له قليل من الإنصاف، لأنَّ الأبيات التالية تشهر فخر عنترة بذاته هنا(٩٧)، وهنا تتأرجح كفة الإنصاف، ويبرز النسق الناسخ الذي يميد به إلى الفخر.

إنَّ من سنن شعراء الحروب في العصر أنْ يصور الشاعر المواجهة شديدة غبراء عالية الحدة، ولا يكون ذلك إلا بإظهار مكانة العدو وقوته وبأسه؛ ليكون للنصر قيمته ونشوته العظيمة، وأي نصر يكون بهزيمة الضعيف، بل يُصبح سُبَّة بين القبائل، فالنصر الحق ما كان بهزيمة الأقوياء، فالفارس لا ينازل "إلا ندَّه؛ لآنَّ في منازلة مَن هو دونه إهانة لفروسيته ... فيهمه أنْ يُذكر أنَّ هذا الخصم كان شجاعًا صلب العود يُحسن مقارعة الأبطال، وأنَّ القضاء عليه لم يكن سهلًا"(٩٨)، ومن هنا كان وصف عنترة شجاعة الفارس وجهوزيته بكامل عدته، ولهذا وقف عمرو بن كلثوم مفاخرًا أنَّهم لا يواجهون إلا السادة الأماجد ذوي العدة والعدد من الملوك، قائلًا(٩٩): [من الوافر]

وكُنَّا الأيمَنِينَ إذا التَقَيْنَا ... وكانَ الأيسَرِينَ بنو أبينا

فصالوا صولة فيمن يليهم ... وصُلنا صولة فيمن يلينا

فآبوا بالنِّهاب وبالسبايا ... وأُبْنا بالملوك مُصَفَّدِينا

فالشاعر "يصور الحالة بأنّها كانت على أشد ما يكون، والعدو كان كثير العدد كامل التسلح، وأبطاله أقوياء أشداء في منتهى الثبات والجلد، كل هذا ليعطي صورة لقومه – عن طريق غير مباشرة – بأنّهم كانوا أقوى وأشد بأسًا من الأعداء"(١٠٠)، فوصْف العدو بالبطل

(٩٧) يُنظر: القصائد المنصفة، ١٠، والمنصفات في شعر فرسان العصر الجاهلي، ربيع سعداوي، مذكرة لنيل شهادة الماستر، جامعة الأمير عبدالقادر، الجزائر، ٢٠١٩م، ٤٩، وتجليات الإنصاف، ١٧.

(٩٨) الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي، ٣٠٢.

(٩٩) ديوان عمرو بن كلثوم، تحقيق: د. إميل بديع يعقوب، ط٢، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م، دار الكتاب العربي، بيروت،٨٣.

(١٠٠) شعر الحرب في العصر الجاهلي، ٢٢٤.

"ليس إلا إشارة عكسية تصب في إضفاء الشاعر الفارس على نفسه الوصف نفسه بحجم أكبر بحكم التغلب والنصر لا من باب الإنصاف أو الاعتراف بالفضل للآخر العدو"(١٠١)، بل من باب الفخر المكثف للذات، فما هو إلا وسيلة لإظهار شجاعته.

(١٠١) صورة الآخر (العدو) في شعر الفرسان في العصر الجاهلي، ٩.

الخاتمة

الحمد لله أوَّلًا وآخرًا، وصلواته على نبي الهدى محمد الأمين، وعلى ألـه الطـاهرين أجمعـين، وبعد:

فإنَّ القصائد المسماة بالمنصفة – موضوع الدراسة – هـي مـن شـعر الحـروب، يحكـي فيهـا الشاعر عن معركة بين طرفين متقاتلين، مصـورًا مـا حـدث لهـا مـن حـر اللقـاء، وقـد سـميت بالمنصفات؛ لأنَّ القصيدة جُعلت بين القائل وعدوه، فيذكر عدوه كما يذكر قبيلته، شـطر بشـطر، أو بيت ببيت، أو موقف بموقف، وقد تولد معنى الإنصاف من التقـابلات البـارزة عـلى سـطح القصيدة، وقد سعت الدراسة لنسخ ونفي الإنصاف عنها، بالاعتماد على قراءة بنية النص نفسـه، وخلصت الدراسة إلى نتائج منها:

١ – أنَّ الشاعر في هذه القصائد لا يسعى من وراء وصْـف خصـمه والثنـاء عليـه في صـبره وثباته إلى إنصافه ومساواته بقبيلته، بل هو وسيلة غير مباشرة، أو هو إشارة عكسـية للثنـاء عـلى الذات، إذ تبين بالشاهد أنَّ القصائد قصائد فخر وليست من التناصف في شيء.

٢ – تحمل القصائد أبيات فخر غاية في العلو والاستكبار، وتلغي الأخر (العـدو)، في حـين رأى النقاد – توهمًا منهم – أنَّ الشاعر في هذه القصائد جعل عدوه صديقًا ودودًا.

٣– كشفت القراءة المتأنية ميل الشعراء – في أبيات الثناء على العدو – إلى ذويهم وأنفسهم.

٤ – مجانبة النقاد الصواب في سـعيهم إلى زج مـا سُـمِّي بالأشـعار المنصـفة في إطـار المعنـى اللغوي للفظة (إنصاف)، لأنَّ الشعراء أثنوا على أعدائهم ووصفوهم بالأبطال الأشداء.

٥ – مناقضة النقاد آراءهم في أثناء تفسيراتهم وتحليلاتهم، فهذا المرزوقي ويتبعـه البغـدادي، يأخذان على الشاعر العباس بن مرداس في سينيته، في اختيـاره ألفاظًـا وتراكيـب تظهـر تفضـيل نفسه وذويه، من نحو إتيان الشاعر لفظة (فوارس) جمعًا، علل المرزوقي: وهي تمييز وحقه هنـا أنْ يُؤتى به موحد اللفظ؛ لكن الشاعر فعل ذلك، لأنَّ في جمعه إيذانًا بالكثير، وهذا البغـدادي يزيـد أنَّ التفضيل حصل أيضًا في قوله (أضرب منا)، وهما ينكران أنْ يجعل الشـاعر في هـذه القصـائد أعلى الصفتين لذويه، وكذلك فعلا مع الشاعر عبد الشارق الجهني؛ إذ أنكرا عليه تفضـيل قومـه على عدوه، فذلك ليس من التناصف، ومع ذلك فقد أدخلا القصيدة في بـاب المنصـفات، وهـذا عبدالمعين الملوحي صانع ديوان المنصفات يرى أنَّ الشاعر العباس من مرداس في سينيته في أبيات الفخر قد تخلى عن الإنصاف، وعلى الرغم من ذلك فقد جعلها من المنصفات.

المراجع والمصادر

* القرآن الكريم

١. الأدب الجاهلي، قضاياه، أغراضه أعلامه فنونه، غازي طليمات، عرفان الأشقر، ط١، ١٩٩٢م، دار الإرشاد، حمص.

٢. الاشتقاق، ابن دريد، تحقيق: عبدالسلام هارون، ط٣،مكتبة الخانجي، مصر.

٣. الأصمعيات، الأصمعي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون، ط٥، دار المعارف، القاهرة.

٤. البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط٧، ١٩٩٨م، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٥. تجليات الإنصاف في شعر صدر الإسلام، مراد زعباط، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، معهد الآداب واللغات بالمركز الجامعي، الجزائر، العدد ١٠، ٢٠١٦م.

٦. التوالد السردي في القصائد المنصفات، قراءة في قصيدة عبد الشارق الجُهني، د. صباح غرايبية، مجلة الآداب، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة، الجزائر، عدد ١٥، ديسمبر ٢٠١٥م.

٧. جماليات الشعر العربي (دراسات في فلسفة الجمال في الوعي الشعري الجاهلي)، د. هلال جهاد، ط١، ٢٠٠٧م مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

٨. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبدالقادر البغدادي، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط٤، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م. مكتبة الخانجي، القاهرة.

٩. دراسات في الشعر الجاهلي، د. نوري القيسي،١٩٧٠م جامعة بغداد، العراق.

١٠. ديوان الأعشى الكبير، تحقيق: د. محمد حسين، ١٩٥٠م، مكتب الآداب، القاهرة.

١١. ديوان دريد بن الصِّمَّة، تحقيق: محمد خير السباعي، ط١ ، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م، دار قتيبة، دمشق.

١٢. ديوان عمرو بن قميئة، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، ط١، ١٣٨٥هـ – ١٩٦٥م ، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٣. ديوان عمرو بن كلثوم، تحقيق: د. إميل بديع يعقوب، ط٢، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٤. ديوان مهلهل بن ربيعة، تحقيق: طلال حرب، ط١، الدار العالمية، مصر.

١٥. شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، تحقيق: أحمد أمين، عبدالسلام هارون، ١٣٧١هـ – ١٩٥١م، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

١٦. شعر خِداش بن زهير العامري، تحقيق: د. يحيى الجبوري، ١٤٠٦ه – ١٩٨٦م، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق.

١٧. الشعر الجاهلي (خصائصه وفنونه)، د. يحيى الجبوري، ط١، ٢٠١٥م، دار مجدلاوي، الأردن.

١٨. شعر الحرب في العصر الجاهلي، د. علي الجندي، ط٣، ١٩٦٦م، مكتبة الجامعة، بيروت.

١٩. شعر الفرسان في العصر الجاهلي، الوظائف والدلالات، رحيق صاح فنجان الصالح، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة ذي قار، العراق.

٢٠. الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي، د. عفيف عبدالرحمن، ط١، ١٩٨٤م ، دار الأندلس، بيروت.

٢١. الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط٢، ١٩٨٢م، دار المعارف، القاهرة.
٢٢. صورة الآخر (العدو) في شعر الفرسان في العصر الجاهلي، أحمد عبيد عبدالله، مجلة بحوث كلية الآداب، جامعة المنوفية، المجلد ٣٠، العدد ١١٦، ٢٠١٩م.
٢٣. طبقات فحول الشعراء، الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.
٢٤. القصائد المنصفة، أسامة علي أحمد أبو علامة، رسالة ماجستير، كية الآداب، جامعة الخرطوم، السودان، ٢٠٠٣م.
٢٥. كتاب الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، الخالديان: أبوبكر محمد، وأبو عثمان سعيد، ابنا هاشم، تحقيق: السيد محمد يوسف، ١٩٥٨م، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
٢٦. منتهى الطلب من أشعار العرب، جمع: محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون، تحقيق: محمد تبيل طريفي، ط١، ١٩٩٩م، دار صادر، بيروت.
٢٧. المنصفات، جمع وتحقيق: عبدالمعين الملوحي، ١٩٦٧م ، مطابع وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق.
٢٨. المنصفات في الشعر الجاهلي، ثابت محمد صغير مقبل، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، ١٩٨٧م.
٢٩. المنصفات في شعر فرسان العصر الجاهلي، ربيع سعداوي، مذكرة لنيل شهادة الماستر، جامعة الأمير عبدالقادر، الجزائر، ٢٠١٩م.
٣٠. المنصفات من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي (دراسة موضوعاتية فنية)، مراد زعباط، أطروحة دكتوراه، جامعة الإخوة منتوري قسنطينة ١، الجزائر، ٢٠٢٠م.
٣١. موضوعاتية الحركة في منصفة (عبدالشارق بن عبدالعزى الجُهني)، مراد زعباط، مجلة أبوليوس، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد الشريف، الجزائر، المجلد ١٠، العدد١.
٣٢. النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، د. عبدالله الغذَّامي، ط٣، ٢٠٠٥م، المركز الثقافي العربي، المغرب.

Rumination of resources

* Holy Quran

1- AL-Adab AL-Jaheley, Qadayah, AGhradah Aa'lamah Founoonah, Ghazi Tuleimat , E'rfan AL-Ashqer, 1992 AD, Dar AL-Arshad, Hims.

2- AL-Ashteqaq , Abin Dureed, Tahqeeq; Abd alsalam Haroon, third Edition, AL-KHanjy library, misr.

3- AL-Asmaeiyat, AL-Asmaei, Tahqeeq, Ahmed Muhammad Shaker, Abdasalam Haroon, fifth Edtion, Dar AL-Ma'aref, Cairo.

4- AL-Bayan Wa AL-Tabyeen, AL-Ghahez, Tahqeeq; Abdalsalam Muhammad Haroon, seventh edition, 1998 AD , AL-Khanjy library, Cairo.

5- Tajeleyat AL-Ensaf fi She'r Seder AL-Islam, Morad Za'bat, Ishkakat fi AL-LUghah Wa AL-Adab Journal, AL-Adaab wa AL-Lughat Institriute in University Center, AL-Adad 10, 2o16 AD .

6- AL-Tawaleed AL-Sardy fi Alqasa'd Almonsifat, Qeraa fi Qaseedat Abdalshareq AL-Johany, D.Sabah Ghraybah, AL-Adaab Journal, Al-Okhowah University, Mantoury, Qasanteina, AL-Jaza'er, ALAdad 15, 2016 AD.

7- Jamaleyat Alsh'er Al-Araby, Derasat fi Falsafat AlJamal fi Al-Wa'i ALSh'ery AlJaheley, D. Helal Jehad, first Edtion 2007 AD, Derasat Alwahdah Al-Arabiya Center, Beirut.

8- Khezanet al-Adab Wa Lob Lobab Lesan Al-Arab, Abd-Alqader Al-Baghdadi, Tahqeeq, Abdalsalam Muhammad Haroon 4th Edition 1420 AH 2000 AD, AL-Khanjey Library, Cairo.

9- Derasat fi ALsh'er AL-Jaheley, D. Nouri Alqeisi 1970 AD Baghdad University. Iraq.

10- Diwan AL-Aashaa Alkabeer, Tahqeeq D. Muhammad Hussein 1950 AD, Aladab Library, Cairo.

11- Diwan Dureed bin Alsamah, Tahqeeq; Muhammad kheir Alsebaa'I, first Edition 1401 AH 1981 AD Dar Qutaeibah, Demasheq .

12- Diwan 'Amr bin Kalthoom, Tahqeeq, Hassan Kamel AL-seirafi first Edition, 1385 AH ,1965 AD, Dar AL-Ketab AL-Arabey. Beirut.

13- Diwan 'Amr bin Kalthoom, Tahqeeq , D. Imeal Bad'e Yaqoub, Second Edition 1416 AH , 1996 AD, Dar AL-Ketab AL-Arabey, Beirut .

14- Diwan Muhalhal Bin Rabeiaa, Tahqeeq, Talal Harab, AL-dar AL-Alameyah, Misr.

15- Sharh Diwan AL-Hamasah, AL-Marzooqi Tahqeeq ; Ahmed Ameen, Abdasalam Haroon 1371 AH , 1951 AD, Lajnat AL-Taaleef Wa Altarjamah Wa Annasher Publisher, Cairo.

16- Sh'er Khadash Bin Zuheir Al-'Amary, Tahqeeq D. Yahyaa AL-Jaburi 1406 AH , 1986 AD, Matboaat Mujam'a Allughah AL-Arabeiyah . Demesheq.

17- Alsh'er ALJaheley, khasaeiseh Wa Funooneh, D. Yahya AL-Jaboory ,First Edition 2015 AD, Dar Majadalawi, Jourdan .
18- Sh'er ALlHarab Fi Al'Asr ALJaheley, D. Ali ALJandi, Third Edition 1966 AH, University Library, Beirut.
19- Sh'er AL-Fursaan fi AL-Asr AL-Jaheley, ALWathaef Wa ALDalalat Raheeq sah Fanjan AL-Saleh, Master Degree AL-Adab Faculty Dheiqar University. Iraq .
20- Alsh'er Wa Ayam AL-Arab fi AL-Asr AL-Jaheley , D. Afeef Abdalrahman, First Edition , 1984 AD, Dar Al-Andalus, Beirut.
21- Alsh'er Wa ALsho'araa, Abin Qoutaeibah, Tahqeeq; Ahmed Muhammad Shaker, Second Edition, 1982 AD, Dar AL-Maaref, Cairo.
22- Sourat AL-Akher (Al-Adou) fi Sh'er Al-Foursan fi AL-Asr AL-Jaheley, Ahmed Obeed Abd-Allah, Bohouth Kuleiyat Aladab journal, Almonoufeya, Almoujalad 30, Aladad 116, 2019 AD.
23- Tabaqat Fouhool AL-sho'araa, AL-Jamhi, Tahqeeq, Muhmood Muhammad Shaker, Dar A-lMadni, Jadah.
24- Al-Qasaed Al-Munsefah, Osamah Ali Ahmed abu 'Alamah, Master Degree, Aladab faculty, Alkhartoom University, Sudan, 2003 AD.
25- Ketab AL-Ashbah Wa AL-Nazaer min Ashaar Al-Mutqadmeen Wa AL-Jaheleya wa AL-Mukhdrameen, AL-Khaledeyan; Abu Baker Wa Abu Otham saeed, Abna Hashem, Tahqeeq; al-Saeyad Muhammad Yousef, 1958 AD ,Lajnat AL-Taleef wa AlTarjamah wa Annasher Publisher.
26- Muntaha AL-Talab Min ashaar AL-Arab, jam'e AL-Ashaar ; Muhammad Bin ALMoubarek Bin Muhammad bin Mimoon, Tahqeeq , Muhammad Nabeel Tareefy , first Edition 1999 AD, Dar Sader, Beirut .
27- Al-Munsefat, Jam'e Wa Tahqeeq; Abdal-Mu'een ALMuluwahi, 1967 AD Matab'e Wazarat Al-Thaqafah Wa AL-Seyahah Wa AL-Arshad al-Qawmy, Demasheq.
28- Al-Musefat Fi alsh'er ALl-Jaheley, Thabet Muhammad Sagheer Muqbal, Master Degree, Jame'at Om AL-Quraa, Saudi Arabia 1987AD.
29- AL-Musefat fi Sh'er Foursan ALl-Asr AL-Jaheley, Rabee' S'adawee, Mudhakerah Le Nail Master Degree, AL-Ameer Abd-AL-qader, al-Jazaaer, 2019 AD.
30- Al-Munsefat Min ALl-asr al-Jaheley Hataa Nehayat al-Asr ALAmawai (Derasah Mudou'ateyah Faneya), Murad Zaabat, PH .D., AL-Okhuwah Mantouri Qusaneinah University, AL-Jazaer, 2020 AD .
31- Mudou'ateyah AL-Harakah fi Musafat (Abdalshareq bin Abdaliz AL-Jaheni). Murad Z'aba, Abuluyues, Aladab Wa AL-Lughat faculty, Muhammad AL-Shareef University, Al-jaer, AL-Mujalad 10, aladad 1 .

32- AL-Naqd AL-Thqafy, Qeraah fi AL-Anssaq al-Thaqafeya al-arabiya, D. Abdallah, third Edition, 2005 AD, al-Markez AL-Thaqafi AL-Araby, ALMaghreb.